تمثّلات النّسق الاجتماعي في رحلات أبو القاسم سعد الله

Representations of the social system in the travels of Abu al-Qasim Saadallah

أحلام عثامنية [1]

تاريخ الإرسال: 2023/12/25	تاريخ القبول:17-02-2024	تاريخ النشر:مارس 2024

الملخص:

جُبل الإنسان على حبّه للاستطلاع والاكتشاف ومعرفة الآخر منذ قديم الأزمنة، وهو ما دفعه للرّحلات والتّنقّل والسّفر من إقليم لآخر راغبا في كشف معالمه وخباياه، والاحتكاك بالشّعوب والتّعرف على عاداتهم وطرق عيشهم من مأكلهم ومشربهم وملبسهم.

وبذلك ساهم النصّ الرّحليّ في انفتاح الشعوب على بعضها البعض، حيث عمل على الربط بين الثقافات وتلاقحها، وهو ما جعلها غنية من الناحية الفنّية والفلسفية والثقافية، ولهذا استطاع النقد الثقافي التعامل بسلاسة مع هذه النصوص.

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تطبيق آليات النقد الثقافي وإثبات مدى نجاعته، من خلال دراسة النصوص الرّحلية لأبي القاسم سعد الله الموجودة في كتابه "تجارب في الأدب والرّحلة"، و الذي تحدث فيه عن رحلاته خارج الوطن إلى المغرب العربي والجزيرة العربية، وداخل الوطن إلى خنقة سيدي ناجي ، و الوقوف عند تمظهرات الأنساق الاجتماعية فيها.

الكلمات المفتاحية: أدب الرّحلة، أبو القاسم سعد الله، النقد الثقافي، النسق الاجتماعي.

Abstract:

Man has been born with his love for exploration, discovery, and knowing others since ancient times, which is what prompted him to journey, move, and travel from one region to another, wanting to uncover its features and secrets, interact with peoples, and learn about their customs and ways of living, including their food, drink, and clothing.

Thus, the nomadic text contributed to the openness of peoples to each other, as it worked to connect and cross-fertilize cultures, which made them rich in artistic, philosophical, and cultural terms. This is why cultural criticism was able to deal smoothly with these texts.

This study aims to try to apply the mechanisms of cultural criticism and prove the extent of its effectiveness, by studying the travel texts of Abu al-Qasim Saadallah found in his book "Experiments in Literature and Travel," in which he talked about his travels outside the homeland to the Maghreb and the Arabian Peninsula, and inside the homeland to a suffocation. Sir Naji, and pay attention to the manifestations of social patterns in it.

***Key words**: Travel literature, Abu Al-Qasim Saadallah, cultural criticism, social system.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: أحلام عثامنية.

athamnia.ahlem@univ-guelma.dz

1- مقدّمة:

[1] **مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبيّة، جامعة 8 ماي 1945 - قالمة.**

athamnia.ahlem@univ-guelma.dz

جُبل الإنسان على حبّه للاستطلاع والاكتشاف، ومعرفة الآخر منذ قديم الأزمنة، وهو ما دفعه للتّنقل والسّفر من إقليم لآخر راغبا في كشف معالمه وخباياه والاحتكاك بالشّعوب، والتعرف على عاداتهم، وطرق عيشهم.

وأدب الرّحلات هو نوع من الأنواع الأدبيّة التي ينقل فيها الرّحالة كل ما تقع عليه عيناه ويصفها وصفا دقيقا حيث يسجّل جغرافيّة المكان من مناظر وأقاليم ومعالم تاريخيّة واجتماعيّة، فالرّحالة يصف ويعرض جميع تفاصيل رحلته ومن هنا استمدّت الرّحلة متعتها، إذ يشعر القارئ أنّه سافر مع الرّحالة، وبذلك أصبحت الرّحلة منبعا يستقي منها الباحثين كلّ حسب مجال تخصّصه، وذلك لما تحتويه من تنوّع في المعارف والعلوم والثّقافة.

قدم أدب الرحلة بوجه عام نظرة عميقة للذات البشرية التي كانت تبحث عن جميع أشكال التواصل، ونقل مختلف المرجعيات الثقافية والتواصل مع الآخر في ثنائية تناظرية (**الأنا/ الآخر**) دون إفراط أو تفريط فكري أو عقدي أو فلسفي، ومنه بقي أدب الرحلات حلقة وصل بين مختلف الحضارات الإنسانية خاصة مسألة التبادل الثقافي، ومرجعياته المذهبية والفكرية التي أسست لعلاقات أكثر إشراقًا بين حضارات الشرق والغرب ليصبح الإنسان فيها مورد تلك الثقافات بما يحمله من حمولات ثقافية متعددة تعيد للإنسانية وجودها الجمعي، فعُدت تلك الثقافات المترامية الأطراف تجسد تراكمًا ثقافيا يتشارك الجميع في إنتاجه بشكل مستمر دون إشكال فكري يحول أثناء عملية التواصل الفكري.

ولعلّ أدب الرحلات، وما قدّمه للثقافة الإبداعية من إنتاج فكري إنساني، ومع ذلك بقيت الثقافة النثرية بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة نقدية أكثر وعيًا من خلال مناهج نقدية تستطيع قراءة المضمر من الأنساق، وفكّ شفرتها العلاماتية تدريجيًا من أجل تحديد ما يحمله النصّ من تجارب بشرية، ومعارف سوسيولوجية، وثقافية باتت تشكل الأطر النصية للغة النصّ الثّقافية كتجربة تستحق القراءة.

وهذا ما ستسعى هذه الورقة البحثية للإجابة عنه من خلال استجلاء تمظهرات النسق الاجتماعي في رحلات أبو القاسم سعد الله.

2- مفهوم الرّحلة:

أ- لغة:

لقد حظيت مادّة "رَحَلَ" بشرح واف في العديد من المعاجم العربيّة،فقد جاء في لسان العرب:"التَّرْحِيلُ وَالرِّحَالُ بِمَعْنَى الإِشْخَاصِ وَالإِزْعَاجُ، يُقَالُ: رَحَلَ الرَّجُلُ إِذَا سَارَ، وَأَرْحَلْتُهُ أَنَا، وَرَجُلٌ رَحُولٌ وَقَوْمٌ رَحِلَ أي يَرْتَحِلُونَ كَثِيرًا، وَرَجُلُ رِحَالُ: عَالِمٌ بِذِلِكَ مُجِيدٌ لَهُ ..."[1]، فالرّحلة هنا بمعنى السيّر. وورد لفظ الرّحلة في موضع آخر بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان آخر "والتَّرَحُلُ وَالإِرْتِحَالُ "؛ الإِنْتِقَالُ، وَهُو الرِّحْلَةُ وَالرِّحْلَةُ اِسْمٌ لِلْارْتِحالُ، لِلْمَسِيرُ ..."[2].

ومن معاني الرّحلة كذلك الوِجْهَةُ أو المَقْصِدُ والرِّحْلَةُ بِالضَّمِ الوَجْهُ الذِي تَأْخُذُ فِيهِ وتُرِيدُهُ ..."[3].

وورد في مقاييس اللّغة (رحل) الرَّاءُ والحَاءُ واللاَّمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيٍّ فِي سَفَرٍ، يُقَالُ: رَحَلَ يَرْحِلُ رِحْلَةً. وَجَمِيلٌ وَرَحِيلٌ: ذُو رِحْلَةٍ إِذَا كَانَ قَوِيًّا عَلَى الرِّحْلَةِ. وَالرِّحْلَةُ: الإِرْتِحَالُ "[4].

وجاء في قاموس المحيط:" الرُّحْلَةُ بِالضَّمِ وَالكَسْرِ أو بِالكَسْرِ: الإِرْتِحَالُ وَبِالضَّمِ: الْوَجْهُ الذِي تَقْصِدُ وَالسَّفْرَةُ الْوَاحِدَةُ. وَالرَّحِيلُ كَأَمِيرٍ اسْمُ ارْتِحَالِ القَوْمِ وَمنْزِلٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالبَصْرَةَ. وَرَاحِيلُ: أُمّ يُوسَفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. وَرِحْلَة: هَضَبَةٌ. وَأَرْحَلَ: كَثُرَ ثُرَوَاحِلُهُ وَالبَعِيرُ: قَوِيَ ظَهْرُهُ بَعْدَ ضَعْفٍ وَالإِبِلُ: سَمِنْتْ بَعْدَ هُزَالٍ فَأَطَاقَتْ الرِّحْلَةُ وَفُلاَنًا أَعْطَاهُ رَاحِلَةً. كَمَنَعَ: انْتَقَلَ. وَرَحَّلْتُهُ تَرْحِيلاً فَهُوَ رَاحِلٌ مِنْ رُحَّلٍ كَرُكَّعٍ.[5]

إذا فالرّحلة تعني التّرحال والانتقال والضّرب في الأرض والسّير في مناكبها.

ب- اصطلاحا:

تعدّدت مفاهيم الرّحلة في الاصطلاح، إلاّ أنّها كلّها تصب في قالب واحد فقد عرّفها الإمام الغزالي" بأنّها أنواع مخالطة مع زيادة تعب ومشقّة "[6]، فالرّحلة في نظره هي احتكاك بالآخر من انفتاح على المكان المتوجّه إليه، فتحدث مخالطة وتفاعل.

أمّا بطرس البستاني فيعرّفها بأنها "انتقال واحد-أو جماعة-من مكان إلى مكان آخر"[7]، فلكلّ رحلة غرض وغاية، دفعت بالرحّالة للتّرحال سواء كان الدافع أو الغاية ذاتيّا خاص بالرّحالة أو عاما خاص بأمتّه وأحوالها.

في حين يعرّفها صلاح الدّين الشّامي:" إنّ الرّحلة تظلّ إنجازا أو فعلا مباشرا لما يعنيه،أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الّذي تبدأ منه، والمكان الّذي تنتهي إليه"[8].

أي أنّ الرّحلة تحقق الحركة للإنسان فيتولّد عن ذلك فوائد عدّة فالشّخص الّذي يقوم بالرّحلات ليس الشّخص نفسه الذي لا يتحرّك ولا يرتحل، وتبقى الرّحلة أعمّ وأشمل من السّفر، لأنّ في السّفر تقطع مسافات معيّنة أمّا الرّحلة فتكون انتقال من مكان إلى آخر بقطع مسافات كبيرة.

فمشتقّات الرّحلة كثيرة ومتعدّدة تدل كلّها على الحركة لأنّ الرّحلة في الواقع ما هي إلاّ حركة وانتقال[9].

أي أنّ الرّحلة عبارة عن رياضة تبعث في الإنسان الحيويّة والنّشاط والبعد عن الخمول.

3- مفهوم أدب الرّحلة:

بعد أن تطرّقنا لمفهوم الرّحلة في الاستعمال اللّغوي والاصطلاحي، سنحاول تحديد مفهوم أدب الرّحلة على اعتبار أنّه فن من الفنون النّثريّة، فهي من الفنون الأدبيّة الّتي عرفت عند الفراعنة والفنيقيين والإغريق، كما عرف عند العرب على أنّه فن له ميزاته الخاصّة، فإذا اهتمّ الرّحالة بتصوير كل ما شاهده في أثناء رحلته من أجل إيصال فكرة معيّنة فرحلته تدخل في مجال" الأدب لأنّه ينفعل ويتأثّر ويصف فيصوّر لنا ذلك من خلال عمله الأدبي"[10].

في حين يعرّفه ناصر موافي بأنّه "ذلك النّثر الّذي يصف رحلة –رحلات- واقعيّة قام بها رحّال متميّز، موازنا بين الذّات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التّواصل مع القارئ والتّأثير فيه"[11].

فأدب الرّحلة جنس نثري يقوم فيه الرّحالة بوصف رحلته وصفا واقعيّا دقيقا مركّزا على كل تفاصيل الحياة، بعيد كل البعد عن الخيال، يقوم فيه بالموازنة بين ذاته بوصفه لحاله وما صادفه وبين الموضوع من أجل التّأثير في القارئ والتّواصل معه كأنّه سافر معه،إذ يسجّل رحلته في أثناء سفره من خلال يومياته أو سردها على أشخاص بعد عودته فيقومون بتدوينها حفاظا عليها من الضّياع نظرا لما تحمله من قيمة.

يعدّ مصطلح أدب الرّحلة في معجم المصطلحات العربيّة" مجموعة من الآثار الأدبيّة التي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلدان مختلفة،وقد يعرض فيها ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطّبيعيّة التّي يشاهدها"[12].

ومن خلال عرضنا لهذه الأقوال نستخلص أنّ أدب الرّحلة مصدر ثريّ تستقي منه سائر العلوم ما جعلها تستحوذ على مكانة مميّزة عن بقيّة الأنواع الأدبيّة باعتبارها شريطا تسجيليّا لمختلف مظاهر الحياة، فالرّحالة وهو يجوب الأرض يسجّل كل ما تقع عليه عيناه، فيختلف الرّحالة في تصوير المكان المزار من شخص لآخر.

4- مفهوم النّسق:

ممّا لاشك فيه أن عصرنا الحالي يعيش تحت واقع فوضى المصطلحات وتحديد المفاهيم، وهذا الإشكال أوقع الكثير من الباحثين والعلماء تحت ما يسمّى بالتّداخل في المعاني، وهذه التّداخلات لابد لها أن تؤثّر سلبا، ونحن اليوم بصدد دراسة أحدث مفاهيم العصر ألا وهو مصطلح" الأنساق الثقافيّة" وتعدد وجهات النظر حوله، والملاحظ للوهلة أنه مصطلح مركب من قسمين النسق والثقافة ومن هنا يتبادر لنا السؤال الآتي:

ما هو النّسق؟ وما هي الثّقافة؟ وماذا نعني بالأنساق الثّقافيّة؟ ومدى ارتباطها بالعلوم جميعا بما فيها الأدب خصوصا؟ وكيف كانت طبيعة العلاقة بينه وبين الأنساق؟

أ- لغة:

ورد مفهوم النّسق في مواضع عديدة نجده في لسان العرب لابن منظور في مادة "نسق" يقول:" النَّسُقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَنِظَامٍ وَاحِدٍ،عَامٌ فِي الأَشْيَاءِ وَقَدْ نَسَقَهُ تَنْسِيقاً"[13].

وورد أيضا في معجم الوسيط:" نَسَقَ الشَّيْءُ–نَسْقًا:نَظَّمَهُ– يُقَالُ: نَسَقَ الدُّرُّ، وَنَسَقَ كُتُبَهُ. والكَلَامُ: عَطَفَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ (أَنْسَقَ) فُلَانٌ: تَكَلَّمَ سَجَعًا. (نَاسَقَ) بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: تَابَعَ بَيْنَهُمَا وَلاَءَمَ. (نَسَقَهُ): نَظَّمَهُ. (انْتَسَقَ) الْأَشْيَاءَ: انْتَظَمَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ. (النَّسَقُ): مَا كَانَ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. يقال جَاءَ القَوْمُ نَسَقًا، وَزَرَعْتُ الأَشْجَارَ نَسَقًا."[14]

أمّا في قاموس المحيط فقد وردت كلمة (النَّسَقُ) بمعنى: مَا جاءَ مِنْ كَلَامٍ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ ... (وَأَنْسَقَ)، أيْ تَكَلَّمَ سَجَعًا، (والتَّنْسِيقُ) هو التَّنْظِيمُ ...، (تَنَاسَقْتُ) الأَشْيَاءَ وَ(انْتَسَقْتُ) أيْ (تَنَسَقَتْ) بِبَعْضِهَا البَعْضُ[15].

من خلال التّعاريف السّابقة يمكننا القول إن معنى النّسق هو التّسلسل والتّرتيب والنّظام، أي التّنسيق التّنظيمي للأشياء عامّة في شكل واحد، وفي مجال الأدب يعني تسلسل الجمل وترابطها.

ب - اصطلاحا:

يعرّف النّسق على أنّه" نظام ينطوي على أفراد مفتعلين يحدد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة المقررة ثقافيا في إطار هذا النّسق وعلى نحو يغدو معه مفهوم النّسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي".[16]

أمّا عبد الله الغذامي يقول:" يجري مصطلح أو يجري استخدام النّسق كثيرا في الخطاب العام والخاص وتبدأ بسيطة، وقد تأتي مرادفة لكلمة البنية أو النّظام حسب مصطلح دي سوسير"[17].

أي أن النّسق نظام ووتيرة تسير الأفراد ثقافيا تحت مسمّى الشّمولية والوحدة فتساعد في فهمهم لبعضهم البعض، أكثر من وظيفتها البنائية الاجتماعية من ناحية الكيان، تحت غطاء مستتر ظاهر فهذه هي الصّفة الجالية للنّسق.

5- مفهوم الثقافة:

أ- لغة:

يقول ابن منظور: " ثَقُفَ الشَّيْءُ، تَثَقُّفًا، وَثِقَافًا وَثُقُوفَةً، حَذْقُهُ، وَرَجُلٌ تَثَقَّفَ وَثَقَفَ: حَاذِقُ الفَهْمِ،والثِّقَافُ حَدِيدَةٌ تَكُونُ معَ القِوَاسِ والرِّمَاحِ يَقُومُ بِهَا الشَّيْءُ المُعْوَجُّ.[18]

إذا فالثّقافة لغة هي الفهم والذّكاء وتقويم العقل وتحسينه عن طريق التّهذيب.

ب ـ اصطلاحا:

يعرّفها حسن جابر على أنها:" مجموعة من العقائد والقيم والقواعد التي يقلّدها أفراد الجماعة، كما تعرف بأنها المعاني، والمعاني التي تفهمها جماعة من النّاس ن وتربط بينهم من خلال وجود نظم مشتركة."[19]

فالثّقافة هي تلك العادات والتقاليد والنّظم التي تجمع الجماعات من خلال خصائص وعوامل تاريخيّة وزمانيّة، إلى جانب تداول نفس المواد الثقافيّة.

فهي كل جامع بين طابع تهذيبي عقلي وتداولي جماعي بغض النّظر عن الإثنيات.

فربما لو جمعنا مجموعة من الأفراد في مكان معين مع اختلاف الأديان والثّقافات والأجناس وبمرور مدّة زمنيّة معيّنة، سنجدهم كونوا ثقافة خاصّة بهم ويتداولونها.

6- الأنساق الثقافيّة:

لقد تطرّقنا سابقا إلى تفصيل هذا المصطلح المركب من لفظتين، والتعرف على شموليته جزئياته لنأتي إلى مرحلة التعرّف على الأنساق الثقافيّة.

يقول عبد الله الغذامي:" هنا يقتضي إجرائيّا أن نقرأ النّصوص والأنساق التي تكون صفةقرائتها خاصّة، قراءة من وجهة نظر النّقد الثقافي، أي أنّها حالة ثقافيّة والنّص هنا ليس نصّا أدبيّا وجماليّا فقط بل حادثة ثقافية فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الاصل النظري للكشف والتأويل مع التّسليم بوجود دلالات أخرى صريحة وضمنيّة، تلعب أدوارا خطيرة من حيث هي أقنعة تختبئ من تحتها الأنساق وتتوسّل به لعمل التّرويض الذي ينتظر هذا النّقد أن يكشفه."[20]

فالأنساق الثقافية عبارة عن قراءة نقديّة لنصوص انطلاقا من أنّ النّص يعبّر عن حوادث وأخبار جماعيّة وثقافيّة، أي استدعاء الكشف والتّأويل، إضافة إلى دلالات أخرى تكون تارة ضمنية وتارة صريحة، فهي خبايا منصوصة تحت إطار مضمر يستوجب على النّقد الثقافي كشفها وتعريتها.

7- الرّحلة والأنساق الثّقافيّة:

إنّ الرّحلة والأنساق الثقافية تربطهما علاقة وطيدة، فهما جزئيتان يعتمدان على بعضهما البعض، فيا ترى ما هي هذه العلاقة؟ وإلى أي مدى كانت؟

لابدّ أنّ الرّحلة هي تلك المغامرة والانفتاح على الآخر وعلى عوالم جديدة، فالرّحالة في خوضهم هذه الرّحلة يتأثّرون بما شاهدوه من مختلف المظاهر سواء كانت اجتماعيّة، ثقافيّة، دينيّة... وهذا الانبهار يستدعي الرّحال إلى استدعاء الأنساق الثقافيّة الخاصة به، ربّما على وجه المقارنة أو على وجه الفهم.

يقول أبو شعيب السّاوري:" تقوم الرّحلة على تداخل وتفاعل بين نماذج وأنساق مختلفة، ينتقل الرّحالة من نماذج إرشاديّة إلى أخرى وفقا للأزمنة أو اللّحظة النّفسيّة التي تعرض لها، ممّا ولّد نصّا يجمع ولا يفرّق كما تفعل الأنساق نفسها"[21]، كما يقول أيضا:" أنّ هذه التّعليقات تتماشى بين الأنساق، وهذه العمليّة الانتقاليّة للرّحالة مع مقوّمات النّصوص ومقوّمات الكتابة، لأنّها قد تخرق الآفاق والسّبب في ذلك هو أنّ الأدب يرضي طرف وقد يثير آخر، وقد يثير الطرف الذي يكون النّص متطابقا مع ذخيرته، هذا ما يفعله الأدب ويشكّل استمراريته وبذلك

يسمح لنا النّص الرّحلي بضبط المميّزات الدّقيقة للنّسق الثقافي المشكّل من النّزاعات الشخصية للأفراد المشكّلين له، ومن التّأثيرات بين الأفراد والجماعات والتّأثيرات بين نسق متعددة، وبين أنساق متعدّدة أخرى يتعلّق الأمر ببنية ديناميكيّة ووظيفيّة".[22]

إذا الطّابع الرّحلي يجمع بين الأنساق بجميع أنواعها مبنيّا على التّوجيه والجمع عكس الأنساق.

فالنّص الرّحلي يمنحنا فرصة تحديد مميّزات الأنساق الثّقافيّة، وحتى تلك النّزوعات التي تداخل سواء كانت شخصيّة أوجماعيّة، أي الطّابع النّفسي اللاشعوري ومن خلال التّأثير المتبادل بين النّصوص والأفراد فهذه الطّبيعة الديناميكيّة التّأثيريّة، أدّت إلى التّعليم والاكتساب عن طريق التّداخل.

ومن خلال ما سبق ذكره يمكن الإجابة عن الإشكاليّة المطروحة حول علاقة الرّحلة بالأنساق الثّقافية فهي علاقة تفاعليّة، وذلك لطبيعة النّص الرّحلي التي تستدعي هذه الأنساق إلى جانب ميزة التعددية المقارنة- البحث في النّسق الآخر المغاير والتماس أوجه التّشابه، إذ وجد الاختلاف البارز ومحاولة إيجاد خيط بينهما لمسح غبار الالتباس سواء كان هذا الالتباس حضاري، ثقافي، ديني ...

ويمكن القول أن الأنساق الثّقافيّة تجسدت في الأدب الرّحلي، وعدُّ هذا التّجسد ضرورة حتميّة من ضروريات العصر.

إذن فأدب الرّحلة تتحكم فيه مجموعة من العوامل التاريخية والسياسية والدينية والاجتماعية وغيرها، وتنعكس فيه مجموعة من الثّنائيات والتّعارضات من قبيل الأنا والآخر، الإسلام والكفر، المرأة والرجل، الأبيض والأسود وغير ذلك، فهو حقل شائك بالعلل والأنساق الثّقافية التي تتدخل في تكوينه الذي طالما اتصف بالهُجنة، ولأن النسق ذا طبيعة سردية كما يقر عدد من النقاد فقد وجد سبيلا للتغلغل في سرود الارتحال، لذلك وجب تجاوز تلك القراءة الصّلدة التي طالما اتهمت النص الرّحلي بالتقريرية، فلغة الرحالة ليست بريئة على الإطلاق، بل لغة هاربة حاملة لمجموعة من الرؤى والتمثيلات.

8- تمظهرات النسق الاجتماعي في رحلات أبو قاسم سعد الله:

لكلّ مجتمع نسق اجتماعي عام تندرج تحته كافة أوجه السّلوك الإنساني، وتتضمّن مجموعة من النّظم الاجتماعيّة "ذات قواعد سلوكيّة مستقرّة تحكم الأنشطة الإنسانية، في ظل جمع من الأفراد المتفاعلين. فهذا النّسق يقوم بتفسير التّجربة الإنسانيّة ويمنح ما هو فاقد للمعنى، المعنى من حيث أصل المعنى، فهو نسق مهيمن يتحكّم في تصوّرات الأفراد وسلوكاتهم"[23].

إنّ النص الرّحلي غني وثري يستجلي كلّ مظاهر الحياة الاجتماعية القائمة على اختلافها فالرّحالة المثقف والمجرب خصوصا بصير الملاحظة، يرصد ويسجل جميع الجوانب الحياتية للبلد، سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو جغرافية أو اقتصادية أو تاريخية وحتى الدّينية منها.

جاء النص الرّحلي عند سعد الله مليء بتصوير الواقع الاجتماعي للأماكن التي زارها ولأهلها، ومقارنته بما كان عليه سابقا.

كما تطرق بحسه وملاحظته الدقيقة إلى أخلاق وآداب أهل المغرب والسعودية والخنقة" **فالمغرب بلد كثير خيره، وفيرة البضائع في أسواقه كما أنها متنوعة ورخيصة والباعة صدورهم رحبة، يتعاملون مع الزبائن بأدب جمّ، نفتقده نحن في أسواقنا، بل إنّ أهل المغرب كرماء جيدون**"[24].

فزميله عبد الكريم لم يبخل عليه بعلمه ولا بطعامه، ولا يختلف أهل المدينة المنوّرة عن أهل المغرب في لطافتهم، فهم مؤدبون جدّا في معاملتهم.

والمغاربة لا زال الكثير منهم متشبث بعاداتهم وتقاليدهم حتى في طعامهم فهم يغسلون أيديهم قبل وبعد الأكل، ويتناولون طعامهم بأصابعهم في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة، والطعام المقدّم للضيف الرّحالة من الأكلات التقليدية المعروفة من كسكس وتحلية ودسوم وشرب شاي، وهذا كله في قعدة حميمية تزيد الجوّ ألفة ومن الضيافة نكهة.

قدّم سعد الله لقراء رحلته إلى المغرب معلومات شتى عن ملامح الحياة العامة للشعوب، وأبرز أنماط العيش عند الآخر، ويتجلّى ذلك في المأكل والمسكن والمشرب، وقد وضح لنا الرّحالة في أثناء زيارته لأسرة آل الصائغ أصهار عباس الجزائري، يقول:" **وتناولنا العشاء في منزل آل صائغ على الطريقة المغربية التقليدية بغسل الأيدي قبل وبعد الأكل، ثم تناولنا الطعام بمقدمة الأصابع في طبق واحد موضوع على صينية كبيرة لامعة...وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية...وعلى الجدران علقت بعض صور الأسرة"**[25].

كما أخبرنا سعد الله عن الآخر اجتماعيا من خلال زيارته إلى بيت الشيخ عبد الله الجراري حيث وصف مأكلهم، وجلوسهم وغيرها، حيث يقول:**" فبعد الجلوس في قاعة مفروشة بالزرابي المنمقة، والأرائك الهشة والمحلاة بالتحف الثمينة، والمناضد المنقوشة بالزخرفة...توجهنا إلى قاعة الطعام حيث تحلقنا حول مادة دسمة تبدأ بالبسطيلا المكسرة الملوزة، وتثنى بالدجاج المحمر المتبل وتنتقل إلى الكسكسي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، ونختم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء...وعلى إثر الغذاء عدنا إلى قاعة الجلوس حيث شربنا القهوة ثم الشاي"**[26]. صوّر الرّحالة جود وكرم أهل المغرب، وبخاصة أهل مدينة الرّباط.

لفت انتباه الرّحالة، أيضا، البنايات والعمران حيث أعجب بضريح محمد الخامس، وهذا ما يؤكده من خلال قوله:" **وما زالت الأعمال جارية في ضريح محمد الخامس، ولكن الجزء الذي انتهى منه يمثل أعجوبة في الصنعة والذوق والمهارة فهو يحتوي على فسيفساء نادرة، ورخام ملون، ونقوش مذهبة في الأسقف والجوانب العليا...وللضريح أيضا عدّة أبواب في الأسفل بعضها يقود إلى الجامع الملحق به، وبعضها يؤدي إلى الخارج"**[27].

تعد حركة التداول الآخر الاجتماعي القائمة بين أفراد المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات ذاتها على نطاق أوسع واحدة من أبرز المشاهدة التي وقفت عندها رحلة أبو القاسم سعد الله، زيارته إلى الجزيرة العربية، ورصد الصور المتعددة لأشكال العلاقات الاجتماعية والمتمثلة في العادات والتقاليد، والبناء الفكري والسلوكي للمجتمعات، وقد رصد لنا الرّحالة أنه وجد إهمالا كبيرا للحكومة، حيث يقول:" **رغم أنّ الشركة أكدت لنا بأنّها أبرقت بوصولنا، وظننا أنّ الأمور ستتعقد، فليس هناك حجز لنا فيها...وليس هناك عشاء"**[28].

نقل الرّحالة في نصه كثيرا ممّا رآه، وعايشه معهم في تلك الفترة، فألقى الضوء على ملابس الآخر، حيث يقول:" **وعندما تقدمنا من عتبة المطار وجدنا مستقبلين بزيهم العربي الوطني"**[29].

ومن الأخبار الاجتماعية التي قدّمها الرّحالة عن الآخر عاداتهم وتقاليدهم في المأكل والمشرب والجلوس، وتحدّث أيضا عن عادة السعوديين في رقصة السيف، حيث يقول:" **اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على**

فرش وأرائك وقدمت لهم القهوة العربية قبل تناول العشاء، ثم صففت جفان الأرز باللحم وأعقبوها بالشاي...أن تأتي فرقة سعودية تقليدية لتؤدي (رقصة السيف)"[30].

وجد الرّحالة في أهل المدينة المنوّرة حسن معاملتهم وتأدبهم، كما لاحظ سهولة الحياة، وفرة المواصلات، وكثرة الزوار من كل ناحية، والأمر ذاته في بساطة الحياة بمكّة، حيث ذكر لباس أهل مكّة، وذلك من خلال قوله:" **ذلك أنه يكفي من اللباس ما أحاط بالجسم ويكفي للقدم نعل مفتوح ساذج، ويكفي لتغطية الرأس ما خف للوقاية من المشمش، وسرعان ما تجف أطرافك إذا توظأت وما تنشف ثيابك إذا غسلتها، ويبدو أنّ المأكل والمشرب أيضا بسيط"**[31].

شاهد الرّحالة في مكّة عددا كبيرا من الإفريقيين من عمال، ومهاجرين، ومعتمرين وتجار، وفيها هي يعج بالزنوج وجامعة تضم عددا من الطلبة الإفريقيين، كما أنّ الحركة في مكّة كثيرة جدا وذلك من خلال قوله:" **والحركة فيها حية طول الليل والأمن شامل، والناس يقومون بمهماتهم كل في حال سبيله"**[32].

أشار كذلك سعد الله في أثناء تجوله في أحياء مكّة وبخاصة سوق الليل وسوق أبي سفيان، حيث زار رواق المغاربة لفت انتباهه عادة غريبة يقول:" **وقد دخلت هذا الرواق فوجدت فيه أحد المغاربة من الدار البيضاء فاعترض على لبسي خاتم الزواج قائلا لي أن لابس الذهب سيكوى به يوم القيامة، وقد وجدته يطعم القطط لحما"**[33].

أشار سعد الله في أكثر من مناسبة إلى بداية الانفتاح في السعودية، وكانت له فكرة مغايرة عن البلد؛ إذ وجد محلات الجزائر والمجلات المليئة بالصحافة الفنّية التي تورد أخبار النجوم والفنانات بالصور كما شاهد في التلفزيون السعودي حصة تعتني بتجميل المرأة، وتعرض صورا في ذلك كما وجد اهتماما بالغا من قبل أهلها لمشاهدة مباريات كرة القدم على التلفزيون، لكنه لمس غياب دور السينما على الرغم من وجود عروض لأفلام في فندق الرياض "الزهرة" الذي أقام فيه الرّحالة، ولاحظ أن المجتمع السعودي تحول اجتماعيا، وذلك من خلال قوله:" **وقد لاحظ أحد أعضاء الندوة بأنّ المجتمع السعودي يمر بتحول اجتماعي كبير، وإن نتائج هذا التحول ستظهر قريبا"**[34].

تحدّث الرحالة كذلك أثناء وصوله إلى مطار جدة عن تأدب الشرطي، وحسن المعاملة معه، يقول:**" أثناء مروري بشرطة الجوازات بحث الشرطي عن الحرف العربي في جواز السفر فلم يجده، فرفع بصره إلي وقال بأدب جم"**[35]. وهذا يعني أنّ الرّحالة أعجب بمعاملة الشرطي، وأسلوب الكلام معه بلطف ولباقة.

تتجلّى صورة الآخر اجتماعيا في رحلة خنقة سيدي ناجي، حيث ركز الرّحالة على لباسهم وزيهم التقليدي، حيث يقول:" **وإذا الناس في زيهم المحلي (البرانس أو القشبية) ويختلفون في الأزقة وعند الدكاكين القليلة"**[36].

كما أخبرنا كذلك سعد الله عن حسن استضافتهم ومعاملتهم وجودهم وكرمهم، يقول:" **فقد استضافنا السيد الدريدي بداره على العسل والجوز"**[37].

نقل الرّحالة في نص رحلته كثيرا ممّا رآه، أو عايشه وألقى الضوء على كثيرا من عادات وتقاليد الزوار الذين زاروا هذه الخنقة منها التبرك بالأضرحة حيث يقول:" **غير أنّ الزوار أخذوا منها للتبرك فتناقضت، ولم يسلم باب الضريح من العبث إذ نقش عليه أحد الزوار بيتين أو أكثر من الشعر بطريقة التنقيب في الخشب"**[38].

اهتم أبو القاسم سعد الله بطباع الشعوب، وأخلاقها، وعاداتها المعهودة منها، والغريبة خلال المواسم والاحتفالات والعبادات والمعاملات اليومية بينهم، وذلك من أجل محاولة اكتشاف هوياتهم، وفهم طابعهم، ولهذا اعتنى بجانب تصوير الحياة الاجتماعية.

9- خاتمة:

لقد أصبحت الرّحلة فنّا من الفنون الشائعة في معظم أقطار العالم، وساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب فيما بينهم عن طريق وفرة وسهولة المواصلات، وحبّ الاطلاع والاكتشاف، ومعرفة ما في هذا العالم من عادات وأخلاق وعلوم وثقافة وغير ذلك، ويعدّ أصدق الفنون وأعذبها لأنّه قادر على التعريف بالواقع ونقل صورته وصورة العصر الذي ينتمي إليه.

ومن خلال بحثنا في تمظهرات النسق الاجتماعي في رحلات سعد الله، توصلنا إلى مجموعة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

- كانت الرّحلة وما زالت من أبرز وسائل التّواصل مع الآخر أينما وجد، فهي المنفذ الفعلي لعبور الحواجز التي يعتقد أنّها موجودة في اجتياز الجسور الموصلة إلى فكر الآخر، ومنهج حياته بكافة مكوّناته.

- كشف لنا سعد الله عن الإنسان من خلال رحلاته الخارجية والداخلية، فهو بطبعه متعطش لمعرفة العالم المحيط به، وشغوف برصد التفاصيل المكوّنة لحياة الآخر على كافة المستويات الاجتماعية والدّينية والثّقافية، وكلّ ما يتّصل بها.

- عكست رحلات أبو القاسم على اختلافها أحوال المجتمع العربي وعاداته، وكشفت عن الانتماء لثقافة الأنا وفهم ثقافة الآخر.

10- الهوامش والإحالات:

[1] ابن منظور، لسان العرب مادة (ر، ح، ل)، دار المعارف، (د، ط)، بيروت، (د، ت)،ج 3، ص1609.
[2] المرجع نفسه، صفحة نفسها.
[3] المرجع نفسه، صفحة نفسها.
[4] ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د، ط)، سوريا، 1979، ص497.
[5] الفيروز آبادي (محي الدّين يعقوب)، قاموس المحيط، دار الجيل، (د، ط)، بيروت، 1985، ج 2 ، ص394.
[6] الإمام الغزالي (أبو حامد بن محمد)، إحياء علوم الدّين،دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1986، ج 2، ص 273.
[7] بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، (د، ط)، بيروت، 1884، مج 8، ص 564.
[3] صلاح الدّين الشّامي، الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدّراسة الميدانيّة، منشأة المعارف، (د، ط)، الإسكندريّة، 1999، ص 11.
[9] ناصر عبد الرّزاق الموافي، الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية ق 4، مكتبة الوفاء، ط1، القاهرة، 1995، ص 23.
[10] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربيّة للكتاب، (د، ط)، ليبيا تونس، 1974، ص 50.
[11] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية ق 4، ص 41.
[12] مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، ط4، بيروت،1984، ج2، ص 17.
[13] ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعرفة، (د، ط)، القاهرة، (د، ت)، مج5، ص4013.
[14] مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، القاهرة، 2004، ص918.
[15] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، قاموس المحيط، تح:محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005، ص 925.
[16] أديت كوينرل، عصر البنوية، تر: جابر عصفور، دار السعادة الصباح، ط1، الكويت، 1993، ص 411.
[17] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت،2005، ص 76.
[18] ابن منظور، لسان العرب، ص 520.
[19] إسراء حسن جابر، النقد الثقافي، مجلة الفلسفة، الجامعة المنتصرية كلية الآداب، العراق، العدد3، 2017، ص 31.
[20] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص75،
[21] أبو شعيب السّاوري، الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج الأدب الرحلي، (د، ط)، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2017، ص 84.

[22] المرجع نفسه، ص 85.
[23] نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط /دراسات فكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص95.
[24] المرجع نفسه، ص258.
[25] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرّحلة (رحلتي إلى المغرب)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص223.
[26] المصدر نفسه، ص224.
[27] المصدر نفسه، 227.
[28] أبو القاسم سعد الله، رحلتي إلى الجزيرة العربية، ص237.
[29] المصدر نفسه، ص239.
[30] المصدر نفسه، ص244.
[31] المصدر نفسه، ص253.
[32] المصدر نفسه، ص252.
[33] المصدر نفسه، ص ن.
[34] المصدر نفسه، ص254.
[35] المصدر نفسه، ص255.
[36] أبو القاسم سعد الله، رحلتي إلى خنقة سيدي ناجي، ص256.
[37] المصدر نفسه، ص252.
[38] المصدر نفسه، ص263